العدد ٢٠١٥/٩

الأحد ١ آذار

الأحد الأول من الصوم

(أحد الأرثوذكسية)

تذكار البارة في الشهيدات أفدوكيا

اللحن الخامس

إنجيل السَحَر الخامس

الرسالة

(عبرانيين ١١: ٢٤–٤٠)

يا إخوةُ بالإيمانِ موسى لمَّا كَبُرَ أبى أن يُدعى ابناً لابنةِ فِرعَون* مختاراً الشَّقاءَ مع شعبِ اللهِ على التّمتُّع الوقتيِّ بالخطيئة* ومُعتبراً عارَ المسيحِ غِنًى أعظمَ من كُنوزِ مِصر. لأنَّه نظرَ إلى الثواب* وماذا أقولُ أيضاً. إنَّهُ يَضيقُ بي الوقتُ إن أخبرتُ عن جِدعَونَ وباراقَ وشمشون ويفتاحَ وداودَ وصموئيلَ والأنبياءِ* الذينَ بالإيمانِ قَهَروا الممالكَ وعملوا البِرَّ ونالوا المواعِدَ وسدُّوا أفواهَ الأسود* وأطفأوا حِدَّةَ النار ونَجَوا من حَدِّ السَّيفِ وتقَوَّوا من ضُعفٍ وصاروا أشِدَّاءَ في الحربِ وكسروا معسكراتِ الأجانب* وأخذت نساءٌ أمواتهنَّ بالقيامةِ وعُذِّبَ آخرونَ بتوتيرِ الأعضاءِ والضربِ ولم يقبلوا بالنجاةِ ليحصَلوا على قيامةٍ أفضل* وآخرون ذاقوا الهُزءَ والجلدَ والقيودَ أيضاً والسِّجن* ورُجِموا ونُشِروا وامتُحنوا وماتوا بحدِّ السيف. وساحوا في

أحد الأرثوذكسيّة

بعد أن طلبنا الغفران من إخوتنا مساء الأحد الماضي لننطلق في مسيرة الصيام الأربعينيّ المقدّس، تذكّرنا الكنيسة بأنّ حياتنا مرتبطة ارتباطًا مباشرًا بإيماننا القويم، وتعبّر عن ذلك في الأحد الأوّل من الصيام باحتفال جليل يشمل زيّاحًا للأيقونات المقدّسة وصلاة تشدّد فيها على إيمانها من جهة، وعلى رفضها للتعاليم الخاطئة من جهة أخرى. فإنّنا في نهاية الصيام سنلتقي بالربّ القائم من الموت، الذي ترتسم صورته من خلال هذا الإيمان القائم على التعليم الصحيح الذي نقله إلينا الرسل والأنبياء في الكتاب المقدّس. غير أنّ هذا الإيمان ليس مجرّد اعتقاد بأمور دينيّة معيّنة أو مجرّد تعاليم تقوم على مبادئ خلقيّة ساميّة، لكنّه حياة يعبّر فيها المؤمن عن ثقته بربّه ويقرن هذه الثقة بالعمل بما يوصيه الربّ.

تتلو الكنيسة المقدّسة في هذا اليوم قراءة من رسالة الرسول بولس إلى العبرانيّين (١١: ٢٤–٤٠)، وقراءة من إنجيل يوحنّا (١: ٤٤–٥١). وفي كلتي القراءتَين إشارة مباشرة إلى الإيمان. ففي الأولى يذكر الرسول كيف أنّ الأنبياء بالإيمان «قهروا الممالِكَ وعملوا البِرَّ ونالوا المواعِدَ وسدُّوا أفواهَ الأسود وأَطْفأُوا حِدَّةَ النَّارِ ونَجَوْا من حَدِّ السَّيْف وتقوَّوْا من ضُعَفٍ وصاروا أَشدَّاءَ في الحرب وكسروا معسكرات الأجانب» (عب١١: ٣٣–٣٤). وفي الثانية يدعو فيلبس نثنائيل إلى الذهاب لرؤية المسيّا المنتظر، وعندما يشكّك نثنائيل يكون جواب فيلبس له «تعال وانظر»، وبعد ذلك يطوّب الربّ يسوع من يؤمن من دون أن يرى (يو١: ٤٥–٥١).

الإيمان بحسب تعريف الرسالة إلى العبرانيّين هو «الثقة بما يُرجى والإيقان بأمور لا تُرى» (عبر ١١: ١)، أي الثقة بعمل الله الخلاصي الذي حقّقه لنا بابنه يسوع المسيح، الذي وعدنا بالحياة الأبديّة، ونحن نحيا على هذا الرجاء، متيقّنين بأنّ الله سيقيمنا مع المسيح: «الله الذي هو غنيّ في الرحمة، من أجل محبّته الكثيرة التي أحبّنا بها، ونحن أمواتٌ بالخطايا أحيانا مع المسيح. بالنعمة أنتم مخلّصون. وأقامنا معه وأجلسنا معه في السماويّات في المسيح يسوع، ليُظهر في الدهور الآتية غنى نعمته

الفائق باللطف علينا في المسيح يسوع» (أف٢: ٤–٧). فالإيمان إذًا هو جوابنا على عمل الله الخلاصي، وبجوابنا هذا، أي بقبولنا بشرى الخلاص، ننال مواعد الله لنا: «وآيات أخر كثيرة صنع يسوع قدّام تلاميذه لم تُكتب في هذا الكتاب. وأمّا هذه فقد كُتبت لتؤمنوا أنّ يسوع هو المسيح ابن الله، ولكي تكون لكم إذا آمنتم حياة باسمه» (يو٢٠: ٣٠–٣١).

إلاّ أنّ هذا الإيمان ليس مجرّدًا، وهو لا يفيد صاحبه إن لم يقرنه بعمل يتوافق مع إيمانه هذا. ولنا في هذا المجال إبراهيم مثالاً يُحتذى، فهو آمن بالله إذ وثق به حتّى النهاية فأخذ ابنه الوحيد اسحق ليقدّمه ضحيّة له: «ما المنفعة يا إخوتي إن قال أحدٌ إنّ له إيمانًا ولكن ليس له أعمال. هل يقدر الإيمان أن يخلّصه؟ إن كان أخٌ وأختٌ عريانَين ومعتازَين للقوت اليوميّ فقال لهما أحدكم: امضيا بسلام، استدفئا واشبعا ولكن لم تعطوهما حاجات الجسد فما المنفعة. هكذا الإيمان أيضًا إن لم يكن له أعمال ميّتٌ في ذاته. لكن يقول قائل: أنت لك إيمانٌ، وأنا لي أعمال، أرني إيمانك من دون أعمالك وأنا أريك بأعمالي إيماني. أنت تؤمن أنّ الله واحدٌ. حسنًا تفعل. والشياطين يؤمنون ويقشعرّون. ولكن هل تريد أن تعلم أيّها الإنسان الباطل أنّ الإيمان بدون أعمال ميّت؟ ألم يتبرّر إبراهيم أبونا بالأعمال، إذ قدّم إسحق ابنه على المذبح»؟ (يع٢: ١٤–٢١).

الإيمان إذًا يقتضي أعمالاً صالحة، مع الإشارة إلى عدم الفصل بينهما، فالإيمان من دون هذه الأعمال لا يفيدنا شيئًا، كما أشرنا سابقًا، والأعمال الصالحة من دون إيمان تفقد غايتها: «لأنّنا نحن عمله مخلوقين في المسيح يسوع لأعمال صالحة قد سبق الله فأعدّها لكي نسلك فيها» (أف٢: ١٠). وهذه الأعمال الصالحة هي ثمار الروح القدس الذي نلناه يوم معموديّتنا والتي تُختصر بعمل المحبّة: «فإنّنا بالروح من الإيمان نتوقّع رجاء برّ. لأنّه في المسيح يسوع لا الختان ينفع شيئًا ولا الغرلة، بل الإيمان العامل بالمحبّة» (غل٥: ٥–٦). وبعمل المحبّة هذا يظهر الإيمان إلى العلن: «نشكر الله كلّ حين من جهة جميعكم ذاكرين إيّاكم في صلواتنا، متذكّرين بلا انقطاع عمل إيمانكم وتعب محبّتكم وصبر رجائكم ربّنا يسوع المسيح» (١تسا١: ٢–٣).

بعد أن قطعنا الأسبوع الأوّل من الصوم، تذكّرنا الكنيسة بشرط هذا الصوم الذي هو الإيمان المستقيم العامل بالمحبّة، كي لا نقع في فخّ الصيام القائم فقط على الانقطاع عن المآكل. لأنّنا إن صمنا وصلّينا من دون أن نقرن ذلك بعمل المحبّة لن ينفعنا الصوم ولا الصلاة بشيء. علينا أن ننتبه لكي تكون عبادتنا صادقة وصحيحة، قائمة على تعاليم الأنبياء والرسل، وموجّهة إلى الربّ يسوع وإلى أبيه السماوي: «أيّها الآب قد أتت الساعة. مجّد ابنك ليمجّدك ابنك أيضًا، إذ أعطيته سلطانًا على كلّ جسدٍ ليعطي حياة أبديّة لكل من أعطيته. وهذه هي الحياة الأبديّة أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته» (يو١٧: ١–٣).

وفي زياح الأيقونات الذي يُقام هذا الأحد، نذكر الذين سبقونا في الإيمان الذي على أساسه سنتابع جُلودِ غنمٍ ومَعِزٍ وهم مُعوَزون مُضايقون مجهودون* (ولم يكنِ العالم مستحقًّا لهم). وكانوا تائهين في البراري والجبال والمغاور وكهوف الأرض* فهؤلاءِ كلُّهم مشهوداً لهم بالإيمانِ لم ينالوا الموعِد* لأنَّ اللهَ سبقَ فنظرَ لنا شيئاً أفضَلَ أن لا يكمُلوا بدوننا.

الإنجيل

(يو ١: ٤٤–٥١)

في ذلك الزمان أراد يسوعُ الخروجَ إلى الجليل فوجد فيلِبُّسَ فقال لهُ اتبعني* وكان فيلِبُّسُ من بيتَ صيدا من مدينة أندراوسَ وبطرس* فوجد فيلِبُّسُ نَثَنَائيلَ فقال لهُ إنَّ الذي كَتَبَ عنه موسى في الناموس والأنبياءِ قد وجدناهُ وهو يسوعُ ابنُ يوسف الذي من الناصرة* فقال لهُ نَثَنَائيلُ أمِنَ الناصرةِ يمكنُ أن يكونَ شيءٌ صالح* فقال لهُ فيلِبُّسُ تعالَ وانظرْ* فرأى يسوعُ نَثَنائيلَ مقبلاً إليهِ فقال عنهُ هوذا إسرائيليٌّ حقًّا لا غِشَّ فيه* فقال لهُ نَثَنائيلُ مِنْ أينَ تعرفني. أجاب يسوعُ وقال لهُ قبل أن يدعُوَك فيلِبُّسُ وأنت تحتَ التينةِ رأيتُك* أجابَ نَثَنَائيلُ وقال لهُ يا معلّمُ أنت ابنُ اللهِ أنتَ مَلِكُ إسرائيل* أجابَ يسوعُ

وقال لهُ لأنّي قلتُ لك إنّي رأيتُكَ تحت التينة آمنتَ. إنَّك ستُعاين أعظمَ من هذا* وقال لهُ الحقَّ الحقَّ أقولُ لكم إنَّكم مِنَ الآن ترونَ السماءَ مفتوحةً، وملائكةَ الله يصعدون وينزلون على ابن البشر.

تأمل

نحن نؤمن بالله، ونَأمَنُ إليه. والفعلان مختلفان في معناهما. فأنْ يأُمَنَ المرء إلى الله يعني أن يثق به ويقتنع بحقيقة وعوده المعطاة له. أما أن يؤمن بالله فيعني أن يعتقد به عقيدة قويمةً ويتبع وصاياه. علينا أن نقتبل الإثنين، أن نكون صادقين من الجهتين. أن نؤمن عن طريق الذين ينظرون إلى الله باستقامة وأن نبقى أمينين لله في كل ما وعدنا وأوصانا وهكذا نتبرّر.

«لأن إبرهيم آمن بالله فحُسب له برًّا» (رو ٤: ٣). كيف كان ذلك؟ وعده الله بنسل وهو إسحق وأنّه به تتبارك قبائل إسرائيل كلّها. ثم أُمر بأن يذبح ابنه الوحيد الذي به يتحقق الوعد. فأسرع وأطاع. وفي الوقت نفسه لم يزل يعتبر وعدَ الله حقيقةً.

أرأيتَ كيف يكون الإيمانُ الذي يبّرر؟ لقد وعدنا المسيح بميراث حياة أبدية، بالنعيم والمجد والملكوت، وفي الوقت نفسه طلب منّا أن نفتقر، أن نصوم، أن نعيش في البساطة والشدّة، مسيرة صومنا المبارك، إيمان الآباء القدّيسين الذي تتوطّد به المسكونة، ونعلن قائلين: «إنّنا كما عيَّنَ الأنبياءُ، كما علّمَ الرسل، كما تسلّمَتِ الكنيسةُ، كما اعتقدَ المعلّمون، كما اتفقتْ آراءُ المسكونةِ معًا، كما أشرَقتِ النعمةُ، كما انطرَدَ الكذبُ، كما استُعلنتِ الحكمةُ، كما جاد المسيحُ بالجوائز، هكذا نعتقدُ، هكذا نتكلّمُ، هكذا نكرزُ بالمسيحِ إلهنا الحقيقي ونكرّمُ قدّيسيه بالأقوالِ والتأليفاتِ والمعاني والذبائحِ والهياكلِ والأيقونات. فأمّا المسيحُ فنسجدُ له كسيّدٍ وإلهٍ ونعبدُه، وأمّا القدّيسون فنكرّمهم لأجل السيدّ العمومي كخدّامٍ له أخصّاء ونقدّمُ لهم السجود بحسبِ النسبة. هذا إيمانُ الرسل، هذا إيمانُ الآباء، هذا إيمان المستقيمي الرأي، هذا الإيمان قد وطّدَ المسكونة. فعلى ذلك نمدحُ أخويًّا، وباشتياقٍ أبويّ، الكارزين بحُسنِ العبادةِ إكرامًا وشرفًا للعبادةِ الحسنة التي جاهدوا لأجلها، ونقول: جميع الذين ناضلوا عن الإيمانِ المستقيمِ الرأي من الملوكِ والبطاركةِ ورؤساءِ الكهنةِ والمعلّمين والشهداء والمعترفين، فليكن ذكرهم مؤبّدًا. فإذ نحن ضارعون إلى الله بأن نتهذّبَ ونتأيّدَ بجهاداتِ ومكافحاتِ هؤلاء من أجلِ حُسنِ العبادة إلى الموت ومتوسّلون إليه أن نظهرَ مماثلين تصرُّفَهم الإلهي إلى النهاية، فعسى أن نكونَ مستحقّين أن ننال ما نطلبُه بنعمةِ ورأفةِ المسيحِ إلهنا الحقيقيّ، رئيسِ الكهنةِ العظيم والأوّل، وبشفاعاتِ سيّدتِنا والدةِ الإله الفائقةِ الشرف الدائمةِ البتوليّةِ مريم، والملائكةِ المتألّهي الشكل وجميعِ القدّيسين. آمين».

الأيقونة البشريّة

«وقال الله نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا» (تك ١: ٢٦). كثيرًا ما يقلّل الإنسان من قيمة نفسه أو من قيمة أخيه الإنسان، ومن قيمة الآخر حتّى ولو كان عدوّه، وينسى أنّ الله خلقه وأخاه على الصورة الإلهيّة. هذا الخلق على الصّورة الإلهية هو الأمر الأساسي الذي يذكّرنا به الربّ في كلّ الوصايا التي سلّمنا إيّاها، وخصوصًا وصيّة المحبّة: «وصيّة جديدة أنا أعطيكم أن تحبّوا بعضكم بعضًا... بهذا يعرف الجميع أنّكم تلاميذي إن كان لكم حبّ بعضًا لبعض» (يو ١٣: ٣٤-٣٥)، «أحبّوا أعداءكم، باركوا لاعنيكم، أحسنوا إلى مبغضيكم، وصلّوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم، لكي تكونوا أبناء أبيكم الذي في السموات... فكونوا أنتم كاملين كما أنّ أباكم الذي في السموات هو كامل» (مت ٥: ٤٤-٤٥، ٤٨).

إذًا، الإنسان هو أيقونة حيّة لله، والكنيسة تدلّ على ذلك عندما يقوم رئيس الكهنة أو الكاهن أو الشمّاس بتبخيرنا خلال الصلوات، مذكّرًا إيّانا بأنّنا مخلوقون على الصورة الإلهيّة وعلينا المحافظة عليها من دون أيّ شائبة. هذه الصورة الإلهية والمثال الإلهي ننالهما من جديد في المعمودية المقدسة، إذ نولد من جديد أبناءً لله وإخوة للرب يسوع.

يقول القدّيس باييسيوس الآثوسي، ردًّا على سؤال تلاميذه عن الذين يرتادون شواطئ العراة، إنّهم أيقونات مرميّة في سلّة المهملات. هذا التّشديد على أيقونيّة الإنسان ليس إلاّ لتذكيرنا بأنّنا أبناء الله، والابن يأخذ ليس فقط شكله من أهله، بل أيضًا طباعه، وتاليًا علينا

أن نتحلّى بالطبع الإلهي الّذي تلخّصه فكرة المحبّة.

مسيحيًّا، لا يمكننا القبول بأيٍّ من النظريّات القائلة بأنّ أصل الإنسان قرد، أو سمكة (كون الأرض كانت مغمورة بالمياه)؛ لا يمكننا القبول إلاّ بفكرة أنّ أصل الإنسان روح إلهيّ نفخه الله في جبلةٍ صنعها بيديه الإلهيّتين على صورته ومثاله. تاليًا، كلّ ما يفعله الإنسان من سوء يشوّه به تلك الألوهة المغروسة فيه منذ البدء. المجرم الذي يخطف أخاه الإنسان أو يذبحه أو حتّى يشتمه لا يستحقّ أن يُدعى ابنًا لله، وقد كان ربّنا واضحًا بهذا الشأن في عظته على الجبل التي نقلها لنا الإنجيلي متّى إذ قال: «قد سمعتم أنّه قيل للقدماء لا تقتل، ومن قتل يكون مستوجب الحكم. وأمّا أنا فأقول لكم إنّ كلّ من يغضب على أخيه باطلاً يكون مستوجب الحكم، ومن قال لأخيه رَقَا (جاهل) يكون مستوجب المجمع، ومن قال يا أحمق يكون مستوجب نار جهنّم» (مت ٥: ٢١–٢٢).

نسمع دائمًا أناسًا يقولون إنّهم لا يستطيعون عدم مجاراة محيطهم لئلاّ يُنبذوا منه، فنجدهم ينجرّون وراء الإدمان على أنواعه والفساد على أنواعه ناسين قول الربّ: «إن كان العالم يبغضكم فاعلموا أنّه قد أبغضني قبلكم، لو كنتم من العالم لكان العالم يحبّ خاصّته، ولكن لأنّكم لستم من العالم بل أنا اخترتكم من العالم لذلك يبغضكم العالم» (يو ١٥: ١٨–١٩). لا يمكننا أن ننكر مدى صعوبة تطبيق هذه الكلمات الإلهيّة في حياتنا اليوميّة المحاطة بشتّى أنواع التجارب، لكنّ هذا ما تعنيه عبارة «المثال» إذ إنّنا مخلوقون على الصّورة لكنّ المثال هو الذي نسعى للوصول إليه، أي التألّه الذي هو هدف كلّ إنسان مسيحيّ.

في النّهاية، إنّ أحد الأرثوذكسيّة (أو أحد انتصار الأيقونة) الذي نعيّد له اليوم، هو عيد كلّ إنسان على وجه الأرض، وهو عيد يذكّرنا جميعًا بأن نكون أرثوذكسيّين، ليس بالمعنى الطائفيّ للكلمة إنّما بالمعنى الحرفي، أي مستقيمي الرأي لا تزعزعنا أيّ تجربة، كما يذكّرنا بأن نؤدّي دورنا كأيقوناتٍ بالطريقة الصحيحة. أمّا إذا حدث وتلوّثت هذه الأيقونات بالغبار (أي الخطيئة)، فإنّ طريقة تنظيفها سهلة جدًّا، وهي التوبة والاعتراف والعمل على إكمال السعي نحو التألّه.

من أقوال الآباء

الديانة المسيحية هي طعام وشراب. كلّما تناولنا منها أكثر انتعش الذهن من عذوبتها، حتى إنّه لا يعود قادراً أن ينضبط ويكتفي، بل على الدوام يسعى إلى طلب المزيد ليتناوله باستمرار. إذا كان لإنسانٍ ظمأ عظيم، ودُفِعَ إليه ماء سلسبيل، فحين يتذوّقه، للحال يُسارع إلى طلب المزيد ليشربه بلهفةٍ أكبر. هكذا تماماً في مذاقة الروح القدس، التي لا يقوى أحد على كبحها أو الاكتفاء بقدر ضئيل منها، تماماً كما في المقارنة أعلاه. هذه ليست كلمات تافهة، بل هي عمل الروح القدس الفاعل في الخفاء في أعماق الذهن.

القديس مكاريوس المصري

بالامكان الإطلاع على النشرة أسبوعيًا على صفحة الإنترنت:

www.quartos.org.lb

أن نكون مستعدّين لأن نَصلب أنفسنا مع الأهواء والشهوات. إن كنّا نتبع وصاياه هذه، وفي الوقت نفسه نؤمن بما وعدنا به، نأمنُ إلى الله على مثال إبرهيم ونتبرّر...

هكذا فإن عيشنا في نعمة وصايا الله: التعقّل، العدل، التواضع، الصبر على كلّ شدّة وإساءة، مقابلة الشرّ بالخير، وكذلك تقشّف الجسد بالأصوام والأسهار، وعامةً صلب نفوسنا مع الأهواء والشهوات، كلّ ذلك برهان على صحّة إيماننا بمواعيد المسيح، فيمنحنا الله بالمقابل الحياة الأبدية والنعيم الأزلي والمجد والملكوت.

لذلك يتوجّه الربّ يسوع المسيح إلى تلاميذه قائلاً: طوبى للمساكين بالروح (الفقراء) لأن لهم ملكوت السموات. طوبى للحزانى، طوبى للرحماء، طوبى للمضطهَدين من أجل البّر (متى ٥: ٣)، الويل للأغنياء الويل للضاحكين، الويل للذين يشبعون، الويل لكم إذا مدحكم الناس (لوقا ٦: ٢٤–٢٦). مَنْ لا يتطلّع إلى التطويبات فحسب بل إلى اللعنات أيضاً، كيف لا يعود يأمن إلى الله؟ يقول يعقوب في رسالته: «أرني إيمانك من أعمالك» (يع ٢: ١٨)، وأيضاً: «مَن هو حكيم وعالم بينكم فليُرِ أعماله بالتصرّف الحسّن في وداعة الحكمة» (يع ٣: ١٣).

القديس غريغوريوس بالاماس